لا كرامة لنبي في وطنه !

ولي الدين يكن يتجاهله المصريون

للأستاذ كرم ملحم كرم

مما يؤلم أن ليس لأديب مصر ولي الدين يكن صدى مسموع في وادي النيل وهو الذي ملأ وادي النيل صيحات وأغاريد ، فالمصريون إخوانه لا يحفلون به كما يحفلون بسواه من رجال الأدب والعلم ، فكأنه لم يكن ، مع أن ولي الدين بلغ مكانة في الأدب والبيان يحن إلى بلوغها عدد وافر من بني قومه . ومعظم هؤلاء الذين يكتبون اليوم في مصر لا يجيدون الكتابة كما أجادها ولي الدين . فان لولي الدين في الانشاء أسلوباً لم يسبقه إليه منشيء ، وما جاراه فيه مقلد ، فارتقى إلى ذروة سامية كان فيها نسيج وحده . فنفحتنا بلغة القرآن كما نفحنا جبران خليل جبران بلغة التوراة ، وظهرت لنا فيه الفخامة ، والتشبيه البكر ، والرقة ، والبلاغة . وقد يكون في بيانه أقدر كاتب عرفته مصر ، فما في أسلوبه تقعر ولا تحذلق ولا ترهل ، بل قوة ورسوخ ، قوة مصدرها القلب ، ورسوخ علته الاخلاص ؛ فليس يكتب ولي الدين ليملأ فراغاً بل ليجود بما تزخر به نفسه من عواطف وأشجان .

وإن يكن ثمة أديب يدل إنشاؤه عليه فهو ولي الدين ، ففيما يكتب تجري نفسه : فيا يكتب الأنفة ، وولي الدين أنوف . فيا يكتب الجرأة ، وولي الدين جريء ؛ فيا يكتب ثورة على الظلم وولي الدين ثائر على الظلم . فيا يكتب العظمة ، وولي الدين عظيم . في أصله وفي قلمه . فان إنشاءه إنشاء ملوك ، وهو من حفدة أصهار الملوك والسلاطين

لقد استعان المنفلوطي بعواطف سواه لما كتب ، فزخرف ونمق ؛ وذلك حسبه ، على حين أن ولي الدين خلق ، وهذا هو المنشئ البليغ . كتب ما يحسه بلغة رفيعة وجيزة تنطلق كالسهم فلا انحناء ولا التواء ؛ ومع كونها لغة ما قل ودل فانها لتموج بالزخرف كالعروس

ولولي الدين في الأدب أنداد جروا مجراه في الأنفة والسمو والنبل . ومن هؤلاء أبو فراس الحمداني ، والشريف الرضي . أبو فراس طمع في العرش الحمداني والشريف الرضي في الخلافة . وبين ولي الدين وبينهما شبه متعدد الوجوه في عواطفه وشعره

ولي الدين عاني وحشة المنفى ، وأبو فراس ذاق مرارة الأسر . أبو فراس عاش ومات مقهوراً ، وولي الدين عاش ومات مقهوراً. شعر المتنبي طغى على شعر أبي فراس ، وشعر شوقي طغى على شعر ولي الدين . على حين أن قصيدة أبي فراس : « أراك عصي الدمع شيمتك الصبر ... » تساوي ديواناً . ولا جدال في أن صاحبنا أبا الطيب يتمنى لو تكون له ، إلا أن عواطف المتنبي بعيدة كل البعد عن رقة أبي فراس في غزله بعد رقة شوقي عن طبع ولي الدين

فلسنا نحس ونحن نقرأ شوقي قلبه يجول في السطور . فما هنالك غير شاعر ينقر العود ليطرب سامعه ، وربما ليرفعه إلى أعلى ذروة من عالم الطرب ؛ على حين أن ولي الدين في شعره الغزلي يثب وثباً إلى القلب ويتلاعب به ويملكه ويذله ويدعوه إلى الاقرار مكرهاً بأنه فعل فيه فعله ، وبأنه تأثر كل التأثر به ، وبأن ما في هذا الشعر يحاكي عواطفه وميوله ؛ فهذه نفسه مسبوكة في أبيات من الشعر ذوات قوافٍ وأوزان ، بينما هو يقف أمام شوقي وقفة الاعجاب ، وقفة الاحترام والخشوع ، فيتأثر عقله لا قلبه ، شأن كل منا أمام الأهرام وقلعة بعلبك وخرائب تدمر ، فنعجب بالصانع والمبتكر دون أن يكون لهذا الاعجاب صلة بالقلب . فالقلب يظل مستقراً في زاويته لا تهتز منه الأوتار ، على حين أن تغريدة بلبل وزقزقة عصفور تحتلان منه الصميم

وهذا موقف أبي فراس من المتنبي : المتنبي شاعر القوة وأبو فراس شاعر المهجة المقروحة ، والاثنان لا يلتقيان . فالمتنبي لما عاد من مصر بالاخفاق ، واحتل قلبه اليأس لم يفكر في سوى الهجو ، في غير ضرب العصا ، فما جرى في منظومه قلبه بل حقده ، بل أعصابه الثائرة وحنقه . فأطلقها تتلى كالرجل الجياش :

عيدٌ بأية حال عدت يا عيدُ ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟
أما الأحبة فالبيداء دونهم ... يا ليت دونك بيد دونها بيدُ

وهذا شعر ، ولكنه شعر حجرى مقدود من الجلمود !

وأبو فراس يئس كالمتنبى لدى وقوعه فى الأسر ، ولا نكير فى أنه كان أشد من المتنبى بأساً وقد نزعت منه حريته وبات تحت رحمة ملك الروم . على أن هذا اليائس لا يضرب بالعصا وهو ينظم الشعر ، فلا يقول كالمتنبى :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

بل ينشد :

أقول وقد ناحت بقربى حمامة : أيا جارتا هل تشعرين بحالى ؟
معاذ الهوى ماذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببال
أيضحك مأسور وتبكى طليقة ويسكت محزون ويندب سالى ؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعى فى الحوادث غالى

وهذا الشعر يائس ، ولكن القلب يتكلم فيه ، لا الحنق ولا العصا ، وليس منحوتاً فى صخر !

* * *

فى طليعة الشعراء العاطفيين فى مصر اسماعيل صبرى وولى الدين . وما اشتعلت العاطفة إلا فى الأيام الأخيرة فى صدر شوقى . ولقد اندفع إليها مضطراً حمله عليها أبطال رواياته . فلا يسعنا القول أن شوقى شاعر عاطفى لكونه أنطق ليلى العامرية ومجنونها بالغزل والنسيب . فالموقف جره إلى ما كلف نفسه إياه . فنطق بيانه لا قلبه . كان مصوراً لا حساساً يعطينا من كبده

وفى هذه الناحية اختلف ولى الدين عن شوقى : ولى الدين كان عبد العاطفة . وكل شعر شذ به عن العاطفة كبا فيه . والدليل شعره السياسى . فأين هذا الشعر من القصائد المصهور فيها قلب ولى الدين ؟

فبينما أنت إزاء ولى الدين العاطفى فى حضرة شاعر من الطبقة الأولى إذا بك تجاه شعره السياسى أمام شاعر من الطبقة الثانية بل الثالثة ، وأين قصيدة :

الله فى وجدى وفى مأملى من لى بعود الزمن الأول
قد كنت أشكو عذّلى فى الهوى وها أنا أثنى على عذّلى
ملت عذب اللوم جهلاً به لو كنت أدرى الحب لم أعذل

من قصيدته فى تهنئة سيد مصر يومذاك عباس حلمى الثانى :

هلمو بنا نحو الأمير نسلّم سلام على عباس مصر المعظم

ألا إن فى الأكباد شوقاً مبرحاً إليه فقد كادت من الشوق تدمى

فى القصيدة الأولى تكلم قلب ولى الدين فأسمعنا أبرع الشعر ، وفى الأخرى تكلم لسانه بما تقضى به المجاملات فعدا سجيته ولم يكن من الظافرين .

وهذه حال ولى الدين فى قصائده كافة : يجلى فى شعر العاطفة ويكبو فيما جاوز هذا الشعر . ولسنا بحاجة إلى الأمثال وهى موفورة فى كل قصيدة من نظم الرجل . وأى جسامة فى الفرق بين قصيدته :

أعلمت الهوى الذى أخفيه أى سر فى القلب لم تعلميه ؟
هو مأواك منذ كان فهل يحـ ـجب شىء فى البيت عن ساكنيه

وقصيدته فى رثاء أحمد خيرى بك :

ياروح خيرى حين جدّ الرحيل قفى قليلا وكفانا الدليل
الموت قد بت الذى بيننـا لم يبق منه غير حزن طويل

فلا صلة بين القصيدتين ولا قرابة : فكأن هذه من نبع وتلك من نبع آخر . وعلى المرء أن يعالج ما خلق له ، وولى الدين على سمو منزلته فى الأدب ، وهو ممن يعشون أبداً فى الطلائع والنظائر ، لم يدرك الفوز فيما لم ينشأ عليه . لقد تفوق فى شعر العاطفة وكان عليه أن يلوذ به ديوانه فحسب ، لا أن يجرى على ما ليس فيه !

* * *

ومع أن من حق مصر أن تفاخر برجل موهوب من أبنائها كولى الدين فانها لتحدق إليه شزراً كأنما يضيمها أن تتعرف إليه على حين تنبطها سائر البلاد العربية على أديب فريد فى نثره وفريد فى شعره العاطفى فى هذا العصر

يقول الناقمون على الرجل إنه ساير الانكليز فوقف عليهم قلمه ، ورحب باحتلالهم وادى النيل ، وجوابنا أن الانكليز ساعدوا على ترقية مصر ، فان يدهم فى عمرانها غير منكورة عليهم . وفئة محترمة من زعماء مصر ، وبينهم من تربعوا فى العرش المصرى وكانوا منه كالسوار من المعصم ، اعترفت للانكليز باليد البيضاء على وادى النيل . فان يكن ولى الدين جارى هذه الفئة فلا عليه . وقد سمعنا النحاس باشا نفسه ، زعيم الوفد المصرى ، يتدفق بالشكر لانكلترا على أثر إبرام المعاهدة المصرية الانكليزية !

وثمة من ينعى على ولى الدين عبثه بالتقاليد ، إذ حارب الخليفة ، وتزوج مسيحية ، وأطلق على أبنائه أسماء غربية ، فأنكره ذووه ومالوا عنه فعرف البؤس المرير :

تعوّد كلٌّ بؤسها ونعيمها وعشنا على بؤسى ولم نتعوّد

على أنه ماشأن الأدب فى حياة الأديب الخاصة ! هذه فى واد وهو في واد . وإذا جئنا ندين الأدباء فى حياتهم الخاصة اضطررنا إلى حذف تسعة أعشارهم من السجل . وهو مجهود سخيف !

ولقد بسم الحظ لولى الدين ، ولكن ما بسم له حتى مات ، وهذا نصيب المنكود من دنياه . كان ولى الدين من مؤيدى السلطان حسين كامل . فلما تولى السلطان حسين عرش مصر قرّب إليه الأديب الموهوب ؛ غير أن الموت زاحم مولى مصر على ابنها البار فدهمه داء الربو فمات وهو فى حلوان ، وقيل إنه مات بالسل

* * *

ومهما يكن فليس ولى الدين ممن يجب الاغضاء عنهم وله على البيان العربى يدٌ طاهرة . عدا أن محاولة طمسه لن تأتى بفائدة ؛ والنقد كفيل بأن يحييه . فما أبقى ولى الدين من آثار أدبية يضمن له الخلود . فليس من أديب فى مصر يأتى نوراً تلو شوقى سوى ولى الدين ، أى إن إنكاره وغمط فضله لا يؤثران فيه ، بل يدلان على نية فاسدة . وإننا لننزه القوم فى مصر عن التحزب فى الأدب ، ويكفيهم أن يعلموا أن التحزب السياسى قضى على تسعة أعشار منظوم بشار بن برد وظل بشار من الخالدين !

« بيروت » كرم ملحم كرم

أطلب مؤلفات

الأستاذ النشاشيبي

وكتابه

الإسلام الصحيح

من : مكتبة الوفد ، شارع الفلكى (باب اللوق)

ومن المكتبات العربية المشهورة

مصدر الهتلرية

منذ أعوام أصدر مستشار الريخ كتابه « كفاحى » متضمناً السياسة التى عول على السير بمقتضاها ، وهى سياسة صريحة لامراوغة فيها ولامداورة . فهل كان هتلر هو خالق هذه المبادئ وواضع تلك السياسة ؟

يرى فريق من المتتبعين لتطور السياسة الألمانية فى نهاية القرن الماضى أن كل ما جاء به دكتاتور ألمانيا إنما هو مأخوذ عن المبادئ التى وضعها الأستاذ هنريك فن تريتشكى أستاذ التاريخ الحديث في جامعة برلين وبثها فى محاضرات ألقاها على القوم فى فريبرج وليبزج وبرلين ، أيام كانت ألمانيا تحرز النصر تلو النصر على الدانيمرك والنمسا وفرنسا (أعنى فى المدة ما بين ١٨٦٦ — ١٨٧٢) ووقت أن كانت تحتاج ألمانيا إلى روح من (مركب النقص) تدفعها على الدوام لأن تتبوأ القمة بين دول أوربا

يقول الأستاذ همبدن جاكسون فى بحث نشره عن نظريات تريتشكى: « يحتمل أن تكون آراء تريتشكى قد استمدت مباشرة من كتاب (كفاحى) ، لولا أنها ظهرت قبل أن يعرف الوجود هذا الكتاب بنصف قرن » ولقد كتب تريتشكى يقول : « إن الحكومة هى القوة ، ووظيفة الحكومة الجوهرية هى شن الغارات ، وبدونها لا تكون هناك حكومة قط ، فلولا الحرب ما كانت الدولة . وينبغى أن يجعل المرء شعاره على الدوام : (إن الحروب دواء الأمم المريضة) كما أنه فى الساعة التى تقول فيها الحكومة : (إن كيانى ووجودى فى خطر) ينبغى أن يغفل المرء البحث عن مركزه الاجتماعى ، وأن يتناسى كل حزب خصومته ، وينكر كل فرد ذاته ، وأن يعتقد أن ليست حياته بشىء إن هى قيست بخير المجموع . وفى هذه اللحظة ذاتها تتجلى عظمة الحرب التى تقول بوجوب تلاشى الضعيف ، أما المثل الأعلى للسياسة فهو الذى ينشد الحرب بينما تنفر منها المادية . ما أبعد الأخلاق عن الواقع حينما تحقر شأن الغلبة فى الكيان الانسانى »